من الاستشراق الى الاستغراب ارادة القوة والإرتكاسية " في شعر الجاهلي" نموذجا

أ. عبد الكريم عنيات / جامعة سطيف 2

****

فاتحة:

ننطلق من مقولة مفكر فرنسي اشتهر في حقل الفلسفة، لكنه مجاز باستحقاق في الأدب الفرنسي ومنح نوبل للأدب 1928 بالنظر إلى لغته الجميلة وأسلوبه الذي يشبه الرجال في الفخامة والوسامة والقوة .هذه المقولة هي لهنري (1859-1941مفكر الديمومة ومفلسف Henri-louis Bergson (برغسون الروحانية في الحياة، مفاد هذه المقولة : أن الذي يعرف بإتقان وعمق لغة شعب . Celui qui connait à ما وأدبه، فإنه لا يمكن البتة أن يكون عدوه بصورة تامة fond la langue et la littérature d'un peuple ne peut pas être tout à fait son ennemi.[1]

والسبب الأكيد لهذا، هو أن المدخل اللغوي يمهد للفكر أن يغترف الأدب والثقافة وروح الحضارة الظاهر والباطن .ونحن نعلم علم اليقين أن المدخل الاستشراقي للحضارة العربية الإسلامية كان لغويا بالحصر وبالامتياز، مما يحيلنا إلى النتيجة البرجسونية إحالة تريب لا إحالة تصديق.

إن الحديث عن النوايا هو حديث الهواجس والتّرقبات العصابية .مثلما أن الحديث عن النتائج والأفعال المتمثّلة للفكر والعيان هو حديث العلم والمنطق .وفي موضوع الاستشراق في الأدب العربي، نركز النظر إلى نتائج الدراسات التي أنجزها كبار المستشرقين في دراساتهم التأسيسية والنقدية من حيث هو مدخل العلم الموضوعي المبتعد عن الهيام الذاتي والتبجيل الشخصي - القومي .وتركيز دوافع الاستشراق وعلله

[1] -Henri Bergson : Les Deux Sources de la Morale et de la Religion, Librairie Félix Alcan, Paris, Onzième édition, 1932, p309.

في بؤرة واحدة هو ضرب من التعنت الذي يقصى المتعدد ويؤسس للموحد الأوحد، فهناك دوافع معرفية خالصة متفتحة على كل

النتائج المحتملة كتعبير عن إرادة العرفان، مثلما هناك دوافع ايديولوجية تحتوى في داخلها أجزاء متعددة مثل الدينية والاستعمارية الاستغلالية أو الإستقوائية...الخ كتعبير عن إرادة القوة والهيمنة.

لكن، وبالنظر إلى التكوين العلمي لكبار المستشرقين، وبالنظر إلى المراتب العلمية التي بلغوها .وبالنظر ثالثا إلى موقفهم من تراثهم هم بالأساس .فإن نعتهم بالمتعصبين واعتبارهم" خدام السياسة والعقيدة"، هو في اعتقادنا ضرب من النكران المطلق لحقائق مختلفة ومتغيرة .وهذه القناعة متأتية من الاعتقاد الراسخ بأن التكوين العلمي الصارم في علميته بالنسبة لأي إنسان، لا يمكن ان يختلف فقط باختلاف الأعراق والأقوام والجنسيات والأزمان .إن الشرط العلمي يخلق بالضرورة عقولا متناسقة ميالة إلى التقيد والموضوعية والوضعية .فكبار المستشرقين قد وقفوا موقفا متماسف تجاه ثقافتهم بغية درك الحقيقة الموضوعية البعيدة عن التزلف والتمجيد، فما الذي يمنعهم كم التماسف الموضوعي تجاه الحضارة العربية بالإجمال والأدب العربي الذي يمثل البوابة الكبرى والضرورية لكل استشراق ممكن أو لكل مشروع استشراق ؟ فلئن كان لكل قضية قطبين قيميين ممكنين، فإن في حالة الاستشراق تتوحد القيمة الإيجابية والسلبية في قيمة واحدة تتلخص في كون الاستشراق مفيد للفكر العربي سواء القادح أو المادح على السواء، وما تأملات" مالك بن بني "العميقة والمحرضة على التعميق والتريث إلا مثالا جميلا وجاد على ذلك عندما قال أنه " يتبين لنا أن الإنتاج الاستشراقي، بكلا نوعيه كان شرا على اتمع الإسلامي، لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة

حرمان سواء في صورة مديح وإطراء (...) أو في صورة التفنيد والإقلال(...) وعلى كل، فان أمكننا أن نصرح بأننا نجد على كل وجه جانبا ايجابيا في هذا الاستشراق،

فإننا لا نجده في صور المديح، بل في صور التفنيد[1] ."والمسألة الأكيدة هي أن ما قيل لا يعني إطلاقا تمجيد الدراسات الاستشراقية بالمطلق، لأن هذا الحكم يمثل العمومية والتعميم الذي لا يستسيغه العقل العلمي، لأن هناك طبقات للمستشرقين) القدامى والمحدثين(، كما أن هناك أنواع منهم) القادح والمادح إلى جانب المتخصصين) المستشرق اللغوي، الديني، السياسي...الخ .(بل فقط نود أن يكون هناك نقد ابستمولوجي للاستشراق مرفوق بدراسة استبدالية بدل الركون إلى الاطمئنان وتجميع الوعي المزيف الذي يشكل تمجد الذات والتراث بالمطلق وبأي ثمن، وإننا هنا لنشر إلى طريقة تعامل محمد أركون مع المنتوجالاستشراقي في الفكر الإسلامي من خلال الانتقال من الاستشراق الكلاسيكي إلى الإسلاميات التطبيقية أو" الإسلامو -لوجيا "على حد نحته المستجد
.[2]Islamologie

إننا نلاحظ أن المتحفظين على الاستشراق من حيث المنطلقات والمناهج والنتائج، إنما ينطلقون من ظاهرة أن الهجوم على الإسلام - كديانة وثقافة ونظم ومؤسسات - كان دوما من طرف المستشرقين بما هم أجانب من الناحية الثقافية والميتودولوجية . لكن ماذا ننتظر من عالم خالص في علميته ونزيه في عقليته وصارم في مبادئه ؟ أي ملتزم بمبادئ الروح العلمي ويدرس بطريقة علمية فكر ما .إن التمجيد الذي نلاحظه لدى بعض المستشرقين للتراث العربي الإسلامي ليس إلا انعكاسا لمزاج شخصي، أو استجابة لتحريض أو مصلحة ما نحن اهل الشرق نرفض أن نكشفها أو نتجاهلها .نحن لا ننفى أن يكون المفكر وسيلة في

[1]-مالك بن نبي :انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 25 وما تلاها – .بيروت، الطبعة الأولى، 1969 ، ص17

[2]- محمد أركون :قضايا في نقد العقل الديني – كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة . للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 2000 ، ص67

يد سلطة ما، وهناك الكثير من الدراسات التي بينت علاقة المثقف بالسلطة إجمالا، تلك العلاقة التي وإن خفت على الأغلبية من الناس، إلا أ موجودة وبقوة في كل ألات .السلطة هنا لا تدل فقط على سلطة السياسية والإيديولوجيا، بل السلطة الدينية وسلطة القديم وسلطة التيار المشترك، إلى جانب سلطة المال...الخ .لكن الهجوم على الثقافة الإسلامية والعربية يجب أن نأخذه نحن العرب المسلمين مأخذا ايجابيا منتجا؛ أي كتحريض للتجديد والتفكير .وإن نحن

طرحنا السؤال التالي :**هل يمكن أن يكون أدب عربي معاصر دون استشراق ؟**

هل انفصلت يوما المسائل المطروحة في الأدب العربي الحالي عن الاستشراق سواء في المنطلقات، أو المناهج أو حتى الفرضيات والنتائج ؟ إن الإبداعات العربية في مجال القصة والشعر والنقد الأدبي والرواية هي انتاج منظوري Perspectiveاستشراقي بصورة مباشرة تقبلية وفعلية أو غير مباشرة احتجاجية أو على شكل رد فعل .وهذا التقرير ليس نتيجة نزوة حينية مؤقتة، بقدر ما هي خلاصة توصل إليها العديد من المتخصصين في علاقة الاستشراق بالأدب العربية المعاصر ولغته.

يقول الدكتور" أحمد سمايلوفيتش "مستنتجا في مقدمة أطروحته، والذي أنجز دراسة مطولة تعكس مجهودا جبارا في هذا الموضوع " :جل المشاكل التي ظهرت في ميدان الفكر والأدب العربيين المحدثين لم تكن إلا نتيجة لأثر الاستشراق فيهما معا [1]".

وفي هذه النتيجة تقرير واضح يعكس العلاقة الوطيدة بين الأدب العربي المعاصر في كل أنواعه وأصنافه بالدراسات الاستشراقية .مما يجعلنا نعتقد بأن الاستشراق ليس قضية هامشية أو كمالية في الأدب العربي الحالي، ولا يمكن بأي حال من الأحوال التفكير معزل عنه.

[1]- أحمد سمايلوفيتش :فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة،1998 .ص7

لكن وبالنظر إلى شساعة مجالات الآداب العربية المعاصر وتكوثر تخصصا، فإننا ملزمون بأخذ مجال واحد فقط من أجل استجلاء وجه العلاقة و "كميته "بين الاستشراق والأدب العربي المعاصر .وهذا هو دراسات النقد الأدبي.

وبالتحديد علاقة نظرية طه حسين التي أثارت ما أثارت من النقاش والجدل الفكري وحتى السياسي، بالمنطلقات الاستشراقية ومناهجها .وسؤالنا الذي يمثل وضعية الانطلاق هو كالتالي :**هل الدراسة التي أنجزها الدكتور طه**

(1973حول مشكلة الشعر الجاهلي تمثل " يدا استشراقية - " حسين1889)

مغرضة وموجهة أم تعكس الوعي الضروري لإنجاز الحداثة المطلوبة في

العالم العربي – الإسلامي ؟

أولا – وقفات تحديدية:

إن"النقد الأدبي "كجنس ناضج من أجناس الدراسات الأدبية، هو المرحلة التي عبرت دوما على مرحلة اكتمال الإنجاز الأدبي في مرحلة ما .وذا فهو يشبه إلى حد كبير عمل الفلسفة حسب تحديد فيلسوف ألمانيا الكبير فريدريك جورج(1770-1831، بما هو عمل تقيمي يأتي عندما يرخي Hegel(ولهلم هيجل الليل سدوله، وعندما يكتمل بناء الواقع الأدبي، اذه العبارات حدد مفهوم وإن Principes de la philosophie du droit[1]وطبيعة الفلسفة في مؤلفه أردنا التأصيل لهذا الجنس الأدبي لأحققنا الكتاب المهم جدا الذي ألفه أرسطو

أو " في فن La Poétique 322-385 ق – م (المعروف بالبوبطيقاAristote (الشعر"، وهو كتاب مرجعي أساسي في الدراسات النقدية الأدبية والفنية .فيه حدد أرسطو الأجناس الأدبية الإغريقية وأصدر أحكاما وصفية وقيمية دون" تمجيد ولا ازدراء ."مما يدل على أن النقد الأدبي هو في الأساس دراسة موضوعية ملتزمة

[1]- هيجل :أصول فلسفة الحق، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ا لد الاول، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1981 .، ص62

بأصول المنهج العلمي المتميزة بالانضباط وتعليق كل الاحكام المسبقة حول الظاهرة الادبية المدروسة لتحقيق الانطلاقة الصحيحة والبدايات الحقيقية Edmundعلى حد توصيف فيلسوف الظواهرية الألماني إدموند هوسرل (1859-1938الذي قال بأن التفكير الأصيل هو بمثابة علم الأصول،Husserl(أي العلم الذي يهتم بما هو جذري[1].

من المسلمات الأساسية لعلم الاستشراق، هو التميز بين الشرق والغرب تميز اواضحا .وهذا ما يتيح لصاحب الثقافة الغربية أن يعتبر نفسه" ذاتا دارسة "غربية لها مكتسبات ومنطلقات محددة، دارسة لموضوع مغاير عنه .يقول أحد المفكرين الشرقيين محددا الترسيمات التمييزية على أساس أن " تاريخ الفكر في الغرب– إلا أقله – هو تاريخ العقل النظري .وتاريخ الفكر في الشرق – إلا أقله – هو تاريخ الإدراك الصوفي والحاسة الجمالية[2]".مما يدل على الاحتكام إلى المعطيات الجغرافية في تقرير الخصائص الحضارية والبنى الذهنية والعلمية للشعوب .وهذه المسألة ليست وليدة اليوم، بل تشكل النظرية الأرسطية حول ما يسمى"بالكيوف الطبيعية "اللبنة الأساسية ونقطة بدأ التميز بين القدرات الذهنية والاستعدادات النفسية لشعوب الشرق التي تم استشراقها وشعوب الغرب التي يسعى البعض إلى استغراب يقول المعلم الأول في البوليطيقي محددا ذلك" :

فالأمم المقيمة في الأقاليم الباردة، والشعوب القاطنة في أوروبا، كلها إقدام وشجاعة؛ ولكنها ناقصة الحجى متأخرة في الصناعة .ولذا لا تفتأ شعوبا أكثر ولعا بالحرية من سواها، ولكنها خالية من النظام السياسي عاجزة عن السيطرة على متاخميها .أما

[1]- ادموند هوسرل :الفلسفة علما دقيقا، ترجمة محمود رجب، ا لس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002 .، فقرة 340 ، ص103

[2]- زكي نجيب محمود :الشرق الفنان، دار القلم، القاهرة، دون طبعة، دون تاريخ، الفقرة - 16 ص119

الشعوب الأسيوية فهي شعوب ثاقبة الذهن تحذق الفنون والصنائع، ولكنها عارية من الثبات ورباطة الجأش .ولذا لا تبرح خانعة مسترقة.

وأما الشعب الإغريقي فلما شغل موقع وسطا من الأقاليم، اشترك أيضا في صفات سكا؛ إذ أنه شعب مقدام متوقد الفؤاد[1] ".وإن كان أرسطو قد أقر في بداية هذا الكتاب تقرير الشعراء بأن اليونان بالطبع هم سادة الأعاجم والبرابرة بالكامل، مما لا يتفق معه الجميع، إلا تأثير الوسط الفيزيائي في تشكل الإنسان والحضارة والقوانين والنظم، من المسائل التي طورها وأخذ الكثير من المفكرين 1406م (في - في الشرق والغرب، ونقصد على سبيل التمثيل ابن خلدون1332) المقدمة المخصصة لدراسة " المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان (1689-Montesquieuالبشر والكثير من أحوالهم ."وكذلك مونتيسكيو (1755في أحد الفصول ألمعنونة استفهاميا ب " كيفتكون لقوانين الرق المترلي صلة بطبيعة الإقليم[2]." لكن التميز بين الشرق والغرب، كان من الناحية العلمية والبحثية لصالح الغرب .لأنه بفضل سبقه الحضاري – ونحن لا منا عوامل هذا السبق في هذا المقام – استطاع أن يأخذ مقام الدارس، في مقابل تحول الشرق إلى" موضوع مدروس ."واهتمام

[1]- أرسطوطاليس :في السياسة، ترجمة أوغسطينس بربارة البولسي، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، 30 .، ص – 20. 25. 371 الطبعة الثانية، 1980 ، ب1327

[2]- للتوسيع والاستزادة في هذه المسألة يرجى التوجه إلى الكتب التالية:

-ابن خلدون :المقدمة، ضبط وشرح وتقديم محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1998 .، المقدمة الثالثة والرابعة والخامسة، ص85

- Montesquieu : de l’esprit des lois, Tome I, Edition E N A G, Alger, 1990, livre seizième : comment les lois de l’esclavage domestique ont du rapport avec la nature du climat, pp 299-300.

الاستشراق بالثقافة أهل الشرق بالإجمال والعرب على وجه التخصيص بدأ من المدخل اللساني والأدبي، على اعتبار انه المدخل الضروري للولوج إلى باقي الموضوعات مثل الفلسفة والدين...الخ .يقول أحمد سمايلوفيتش مبينا اهتمام الاستشراق باللغة العربية وأد " :حرص على دراسة كل ما يتصل)أي اللغة (من قريب أو بعيد، فبحث في فقهها، وأصوا، ونحوها وصرفها، وأصولها ومعاجمها، وأطوارها وغزارا، ومادا وفلسفتها، وعلاقتها باللغات الأخرى، وخاصة اللغات السامية، ومميزا، وعناصرها وتاريخها، ونقوشها وكل ما أنتجته هذه اللغة حتى يبدوا كأنه قد صب اهتماماته عليها، وذلك لصلتها الوثيقة بالإسلام والقرآن والحديث والشريعة على حد سواء(...).اهتم بكل ما 200 يتعلق به) الأدب العربي(، حيث درس تاريخه، وتطوره، وقيمته وأصالته، وعصوره، وضته، وتأخره، وازدهاره، وانحطاطه، وانتحاله، وسرقاته، وتأثره وتأثيره، وأعلامه، وشعرائه، وكتابه، وقد كانت عنايته به أكثر وأشد شغفا، وأوسع انتشارا، وأصعب دراسة، لأمحاولة لفهم الشخصية العربية، والإحاطة من كل جوانبها[1]".

ثانيا – طه حسين وأغراضه:

ولئن كان السبق التاريخي لدراسة التراث العربي والإسلاميعلى السواء بما هو تراث شرقي، للدراسين المستشرقين .فإن النهضة العربية الحديثة بعد حملة نابليون 1801، قد انطلقت من تلك الدراسات التي أنجزها أساتذة - على مصر1798 مختصين من الجامعات الغربية الفرنسية والألمانية والإنجليزية على وجه التخصيص.

على اعتبار ان صدمة الحداثة تنجت على اتصال العرب بالغرب من خلال البعثات العلمية التي فتحت المشهد الثقافي الحداثي العربي بداية من التجربة -1873)المصرية . ويعتبر كتاب الدكتور الأزهري " رافعة الطهطاوي1801)"

[1]- أحمد سمايلوفيتش :فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، مرجع سابق، ص184

التلخيص الأهم لهذه التجربة التي انبهر فيها العالَم والعالم الشرقي أمام مدنية عريقة وقوية الأسس .يقول معترفا بالبون الشاسع بين الشرق والغرب متجسدا في التجربة الفرنسية " :ولا ينكر منصف أن بلاد الافرنج الآن في غاية البراعة في العلوم الحكمية واعلاها في التبحر .من ذلك بلاد الانجليز والفرنسيس والنمسا، فان حكماءها فاقوا الحكماء المتقدمين كأرسطوطاليس، وأفلاطون، وبقراط، وامثالهم، واتقنوا الرياضيات والطبيعيات والالهيات وما وراء الطبيعة اشد اتقان (...)واعلم أن مدينة باريس هي أعظم مدن الإفرنج التي يرحل اليها الغرباء لتعلم العلوم، خصوصا العوم الطبية ... الجراحة والتشريح وفن الفيسيولوجيا[1]".

والمسألة التي لا نوافق فيها تقرير الطهطاوي هي تأكيده على تفوق العرب في معرفتهم بلغتهم، فهو عندما يقول بأن " الافرنج حكموا بأن علماء الإسلام انما يعرفون شريعتهم ولسام، يعني ما يتعلق باللغة العربية، ولكن يعترفون لنا بأننا كنا أساتذة أم في سائر العلوم، وبقدمنا عليهم، أوليس أن المتأخر يغترف من فضائله، ويهتدي بدلالته [2]"... فإنه يلغي حقيقة تاريخية لا يمكن انكارها أصلا، وهي أن الغرب ذام قد استطاعوا معرفة تاريخ اللغة العربية وآدا قبل العرب ذام .وما أدل على ذلك إلا تتلمذ كبار علماء اللغة العربية على أيدي المستشرقين ذام .لذا فإن أخص ما ينسب للعرب وهو العلوم اللغوية والآداب، قد تفقه فيه الغرب أكثر من أهل الديار لأم عمدوا إلى دراسات متخصصة ومناهج منتجة.

ويعتبر الدكتور طه حسين1889) العلم من أوروبا وبالتحديد فرنسا .لكن حالة طه حسين حسب رواية أحد تلامذته تختلف عن بقية الحالات، يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي محددا الحالة: عندما جاء طه حسين إلى فرنسا كان قد حصل على

[1]- رفاعة رافع الطهطاوي :تخليص الإبريز في تلخيص باريز أو الديوان النفيس بإيوان باريس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر العاصمة، 1991 ، المقالة الأولى ، ص . 26 والمقالة الثالثة، ص183.

[2]- المرجع نفسه، المقدمة، الفقرة1 ، ص11

الدكتوراه من الجامعة المصرية .لم يكن مجرد دارس مبتدئ (...) طه حسين كان رائدا ومصلحا ثائرا لم يكن بوسعه أن يكون غير ذلك حتى ولو يسافر إلى فرنسا . بمعنى أن فرنسا لم تضف إلى استعداداته المتوقدة شيئا) ...لكن (تعلق طه حسين بفرنسا وافتتانه بالفكر الفرنسي عموما قد جنى على موضوعيته العلمية، ففي أحكامه على هذا الفكر – أي الفرنسي -كنت أشعر أنه مجامل إلى حد كبير لزوجته الفرنسية. ففي مؤتمر المستشرقين سنة) 1948 في باريس (بدأ طه حسين كلمته – وبدوي كان حاضرا وهو راوي هذه الحادثة – قائلا :إنني أشعر بحب تجاه فرنسا[1]".

وهذا التقرير، الذي يعتبر بمثابة شهادة موضوعية خالصة، لأن الدكتور بدوي لا يعرف املة على الإطلاق، تتعارض مع تقريرات وتقديرات الأغلبية من الدارسين لفكر طه حسين النقدي .إذ نجد الدكتور مصطفى محمود الذي قدم لأطروحة الدكتوراه التي حررها أحمد سمايلوفيتش يقول بأنطه حسين تأثر بمنهج "مارجوليوث "في حكمه على الشعر الجاهلي، ويثير الشكوك حول أصالة الشعر الجاهلي .ويواصل أحمد سمايلوفيتش قوله " :يبدأ طه حسين) سقراط العرب(دراسته) في الشعر الجاهلي (بسيب من الشك لا يكاد يوجد في علومنا وخاصة في الأدب، ويثور على أوضاع اللغة التي تدرس في مدارسنا وجامعاتنا ومعاهدنا وينقد مدارسنا البلاغة زاعما بالية لا تقدم ولا تؤخر ويبدوا أنه نسى أن هذه العلوم والآداب والفنون التي غذى نفسه كان لها أكبر الأثر في تكوينه ورفعته وهي التي جعلته يتطاول هذا التطاول وينتقد الوضع ويثور حتى على المقدسات.

ويبدوا أنه لم يدر أن العلماء والنقاد قبله قد شكوا كما بينا ولكن كانوا في شكهم هذا على حق لا على باطل، ونظروا إلى الشعر العربي من خلال مقياس العدالة والانصاف لا مقياس الشك والبلبلة والجري وراء **مرجوليوث** وغيره من الطاعنين في الادب

[1]- سعيد اللاوندي : عبد الرحمن بدوي – فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام، مركز الحضارة العربية،

-124.القاهرة، الطبعة الأولى، 2001 ، ص123

العربي ولا ندري من دفع بطه حسين ليكون خليفة في هذا الاتجاه وما يتسم به في محاولة الإصلاح جد هزيلة إذا قسناها بمحاولات الإصلاح التي سبقه إليها مصلحون بناؤون لا هدامون كالطهطاوي والأفغاني ومحمد عبدو وغيرهم[1]".

والحقيقة أن أقوال المفكر اليوغسلافي – الأوروبي، تدل على التعامل الحذر مع الأطروحة التي أعلنها طه حسين في كتابه المخصص للنقد الأدبي وبالتحديد الشعر الجاهلي .فهو، وإن أراد في تشبيهه طه حسين بسقراط أثينا أن يكرمه ويعلى من شأنه، إلا أن الحقيقة عكس ذلك، فهو يريد أن يبين التوجه " العدمي، والسلبي، وأيضا الهدامي "لفكر طه حسين .فقد حفظ لنا أفلاطون في نصه المشهور " Apologie de Socrateبأبولوجيا سقراطا لتوصيف الذي قدمه سقراط لنفسه تجاه شعب أثينا، باعتباره مزعجا ومثيلا للبلبلة .يقول أفلاطون على لسان سقراط :إن جاز أن أسوق إليكم هذا التشبيه المضحك، لقلت إني ضرب من الذباب الخبيث، أنزله الله على الأمة، التي هي بمثابة جواد نبيل عظيم ثقيل الحركة لضخامته، ولابد له في حياته من حافز .أنا تلك الذبابة الخبيثة التي أرسلها الله إلى الأمة (...) نعم قد أكون مزعجكم كلما باغتكم فأيقظكم من نعاسكم العميق[2] ".فهل الأمة العربية تشبه ذاك الحضان الضخم الثقيل الذي ركن للنوم والأكل ؟ إن كان الأمر كذلك – وهو تشبيه في تقديري الخاص متطابق بصورة كبيرة مع واقع العرب في زمننا الحالي – فإن طه حسين يكون بمثابة مجدد (1897الذي أعلن (1905 - والأفغاني - 1839) حقيقي، يفوق تجديده عبدو1849) واعترف بأن الباحثين المستشرقين) وكان يقصد

[1]- أحمد سمايلوفيتش :فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، مرجع سابق، ص385

[2]- أفلاطون :دفاع سقراط، ترجمة زكي نجيب محمود، مكتبة الأسرة، دون مكان، دون طبعة، 2001 ، ص 94.

طبعا أرنست رينان[1] (ليس بمن ستهان ، مثلما يقرر الأغلبية من أساتذتنا، حيث يرموم بالتعصب والكراهية بجرة قلم سهلة .لكننا نلمس أقصى الأحكام الذاتية الخارجة تماما على التحديدات العلمية والمقاييس العقلية في قول أستاذ جامعة آل البيت الدكتور"يحي وهيب الجبوري "عندما قال بأن" :مقالة مارجليوث أول بحث منظم هاجم الشعر الجاهلي وأنكر وجوده، وقد تبعه ونفخ في أفكاره بعض) الأكيد أنه لا يقصد إلا طه حسين (من استهواهم هذا النهج الذي ظاهره العلم وباطنه الكيد للعربية وكتا وأهلها) الضالين والمض للين وألمض للّين (كنت أول من ترجم مقالة مارجليوث ترجمة كاملة ونشر سنة 1977 في بيروت).ترجمها أيضا بدوي"نشأة الشعر العربي "ضمن كتاب دراسات المستشرقين سنة.1979[2] ففي هذه الأحكام نشر وكأننا أمام محاكم للنوايا وليس باحث أكاديمي يستند على الملاحظة والتفحص والمنطق.

ثالثا – من مرجوليوث إلى طه حسين:

D.S.Margoliouth(1858-من هو مرجوليوث ؟ دافيد ساموليلمرجوليوث 1940 (له كتاب " محمد ونشأة الإسلام 1905 "، وكتاب الإسلام 1911 ، ونشر محاضرات حول " تطور الإسلام في بداياته . 1914 "لكن هذه الدراسات كانت تسرى فيها روح غير علمية ومتعصبة، مما جعلها تثير السخط عليه ليس فقط من عند المسلمين باعتبارهم معنيين بالقضية، بل وعند كثير من المستشرقين .ومع ذلك اختاره مع العلمي العربي في دمشق عضوا مراسلا عند نشأته. 1920 ولو أردنا أن نحدد إنجاز مرجوليوت، فإننا نقول أن فضله الحقيقي في نشراته الكثيرة، وعلى رأسها نشرته

[1]- أحمد أمين :زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر العاصمة، . 110 وأيضا عبد الحليم محمود :التفكير الفلسفي في الإسلام، دار الكتاب اللبناني 1990 - ، ص .109 ومكتبة المدرسة، دون م، دون ط، دون س، ص259

[2]- يحي وهيب الجبوري :المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، -46.الطبعة الأولى، 1997 ، ص ص259

لكتاب " معجم الادباء "لياقوت، ولرسائل أبي العلاء المعري، وترجمته لقسم كبير من تاريخ مسكويه"تجارب الأمم[1] 1920.."والملاحظ أن حكم عبد الرحمن بدوي يتفق مع حكم الدكتور يحي وهيب الجبوري، وكذلك

الدكتور أحمد سمايلوفيتش .وهذا ما يدفعنا إلى تحديد دقائق موقفه من الشعر الجاهلي وعلاقة ما قاله بكتاب الدكتور طه حسين في كتابه " في الشعر الجاهلي."

نشر مرجوليوث بحثه " أصول الشعر العربي "الذي يعتبر مصدر فكرته حول الشعر الجاهلي سنة 1925 ، لكن بدايات اهتمامه بالموضوع كانت قديمة .فقد كان يحقق كتاب" إرشاد الأريب"المعروف" بمعجم الأدباء "ياقوت .ولاحظ ظاهرة مريبة تتمثل في غموض المعارف التي وصلت حول شخصية"حماد الرواية "و"خلف الأحمر " وكذلك تناقض أخبار رواة الشعر بين الوضاعين الناحلين والثقات العادلين .هذا التعارف في الروايات دفعه إلى التشكك في النظرية التقليدية التي اتفق علها الجميع والتي سماها طه حسين رأي القدماء أو انصار القديم .يقول المستشرق بروكلمان معرفتنا للشعر الجاهلي ":جمع اللغويون في البصرة والكوفة ما بقى من الأشعار القديمة لمن بعدهم من الأجيال .جمعها" حماد الرواية "وسماها " المعلقات "للتعبير على نفاسة ما اختاره .وزعم المتأخرون سميت معلقات لأ كانت معلقة على الكعبة لعلو قيمتها[2]".يقول مترجم مقالة مرجوليوث " :حين أصدر كتابه" 1905لاحظ " Mohammad and the Rise of Islamمحمد وظهور الإسلام أن في لغة القرآن شبها كبيرا من لغة الشعر الجاهلي، وما دام الشعر الجاهلي في نظره مصنوعا) أي موضوعا ومنحولا في أغلبه (في كثرته، وضع على مثال القرآن، فإنه لا يصح أن يقبل رأي العرب في الشعر الجاهلي (...)قال أن الشعر الجاهلي قيل بعد القرآن وعلى

[1]- عبد الرحمن بدوي :موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1993 ، ص546

[2]- كارل بروكلمان :تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة،الطبعة الخامسة، 1983 ، ص . 67 ويحي وهيب الجبوري : المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، .مرجع سابق، ص48

نسقه [1]."إذن فإن المستشرق مرجيلوث قد قرر بأن الشعر الجاهلي موضوع بعد البعثة المحمدية، وهذا عكيس الاعتقاد السائد، بسبب ملاحظته لوجود " قلق " في الأحكام التي وصلت إلينا .والتناقض لا يمكن ان يسكت عليه كما سكت العرب ذوي التوجه التقليدي .والحقيقة أن التأمل في حجه يوحى بمنطق صارم وعقل نزيه من كل "خلفيات ."وهذه التراهة العلمية الالتزام المنطقي، جعلت المسلمين يترعجون .ومن أهم حجج مرجوليوت:

-في الشعر الجاهلي نجد الكثير من القصص الذيذكر في القرآن، وهذا يبطل أسبقية الشعر تاريخيا على البعثة.

-الدليل اللغوي يتمثل في أن العرب لم يكن لهم لهجة واحدة أو موحدة، يقرر بروكلمان أن " اللغة العربية ورثت كل اللغات السامية الأخرى تقريبا(...) ويفرق في الجزيرة العربية نفسها، بين مجموعتين كبيرتين من اللهجات :العربية الجنوبية والعربية الشمالية(...)والرأي الذي كان منتشرا، حتى قبل وقت قصير، بأن البدو في شمالي الجزيرة العربية، كانوا قبل مجيء النبي) ص(، بعيدين عن أي حضارة – وهذا الرأي خطأ بالطبع، فهناك حيث الصحراء، وبلاد الحضارة الواقعة على حدودهم، لم يتخلص العرب من تأثير جيرام فيهم "[2].فلغة العرب لم تكن موحدة إلا بعد القرآن، وهو حال الشعر الجاهلي الموحد .السؤال هو

كيف توحدت لغة الشعر الجاهلي ؟ فقد كان من المفروض أن تتعدد لغته، ووحدة لغة الشعر دليل على أنه وضع بعد القرآن.

هذا باختصار موقف المستشرق مرجوليوت الذي انتهي إلى أن الشعر الجاهلي وضع بعد البعثة، وهذا عكس الموقف السائد بأنه جاهلي، ونحن نعلم أن هذه التسمية)

[1]-- يحي وهيب الجبوري : المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، المرجع نفسه، ص49

[2]-- كارل بروكلمان :فقه اللغات السامية، ترجمة رمضان عبد التواب، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، 1957 ، ص .

الجاهلية (هي في حقيقتها تسمية قرآنية .وبالتالي فإن أي محاولة للتشكيك في معناها وتاريخها ومكونا ، هو تشكيك في حكم أطلقه القرآن، الكريم .ولئن كان مرجوليوت قد أصدر كتابه حول الشعر الجاهلي سنة1925

فإن الدكتور طه حسين قد أصدر كتابه " في الشعر الجاهلي "سنة 1926 ، أي بعد سنة فقط من إصدار مرجوليت، وكتاب طه حسين في أصله مجموعة محاضرات ألقاها عندما كان أستاذا في الجامعة المصرية .وقد تنبأ عميد الأدب العربي بالسخط الذي سيلي نشر محاضراته، وبه افتتح كتابه .وأعلن صراحة منهجه المعتمد، ونحن نعلم جيدا أن العلم ما هو إلا محصلة المنهج أو الميتودوس.

واذا فقد استجاب طه حسين لمنهج ديكارت المشهور، يقول في العنصر الثاني من الكتاب الأول " :سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة (...) ُأريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه)ديكارت (للبحث عن حقائق الأشياء (...) الناس يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل خلوا تاما (...) هذا المنهج قد جدد العلم والفلسفة تجديدا[1]."ونحن ندري جيدا أن الإنجاز الديكارتي الأصيل كان في حقيقته إنجازا منهجيا في الأساس، فهو الذي كان يقول حكمة عندما قال أنه ينبغي على المرء أن يعدل عن التماس الحقيقة من أن يفعل ذلك من غير منهج .فالمهم عند الإنسان ليس القدرات العقلية الخارقة، أو الذاكرة الحفّاضة القوية، بل المهم فقط هو الاستعمال الجيد للمنهج، أي حسن التوظيف .فالقاعدة الأولى من منهج ديكارت في قيادة العقل قيادة حسنة والبحث عن الحقيقة في العلوم هي الشك ففي كل ما اكتسبناه من معارف لا تتسم بالوضوح والبداهة.

[1]- .طه حسين :في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، دون ط، دون س، ص23

يقولعن القاعدة الأولى في مقالة الطريقة " :أني لا يجب أن أقبل شيئا ما إلا إذا la premier était de ne recevoir jamais aucune chose pour vraie que je ne la connusse évidemment être من ظهر لي بوضوح أنه كذلك[1] ".telle أجل التخلص من الرمال المتحركة والرمال الزائلة، والعثور على الصخر والصلصال، كتعبير عن اليقين الذي يأتي بعد الشك.

والحقيقة أن الدكتور طه حسين، قد طبق هذه القاعدة أحسن تطبيق، على اعتبار ان مشكلة الرواية في الشعر كما لاحظها المستشرق مرجوليت، وكما يلاحظها أي دارس موضوعي لظاهرة أدبية، تثير الشك أكثر مما تثير التقبل والاطمئنان .والنتيجة التي توصل إليها طه حسين بعد تطبيق القاعدة الديكارتية هي أن " الكثرة المطلقة مما نسميه الشعر الجاهلي ليست من الشعر الجاهلي من شيء (...) الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء،

ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن (...) لا ينبغي أن يستشهد ذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث وإنما ينبغي أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله [2]".إذن وكما هوبين، فإن طه حسين لا ينكر وجود مرحلة تسمى المرحلة الجاهلية، بل يشك في الشعر المنسوب إلى هذه المرحلة .وشكه هذا مستند على علم اللغة بما هو العلم الذي قام على المقارنة بين ، ونحن على دراية بأن[3] comparer les langues entre elles اللغات (1913قد نشرتحوالي 1916

[1] - 2René Descartes : Discours de la méthode, GF Flammarion, Paris, 1966,Second partie, p47

[2]- طه حسين :في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص . 21 أو طه حسين :في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق - 65."محمد عبد الرحمن محمد"، دون م، دون س، الطبعة الثالثة، ص64

[3] -Ferdinand De Saussure :cours de linguistique général, Editions ENAG, Alger,3éme édition,2004, p10

وبالتالي فقد انتفع - محاضرات دي سوسير 1857) منها كل الأدباء وعلماء اللغة .ومن الأدلة التي قدمها الدكتور طه حسين على أن

الشعر الجاهلي منحول نجد:

-أن الشعر الجاهلي لم يقدم توصيفا دقيقا للحياة الدينية الوثنية في الجاهلية، فما هو السر ؟ إما أن الجاهلي غير متدين وهذا محال، لأن التدين ظاهرة أنثربولوجية بعامة، أو تم تصفية الشعر الذي يتحدث عن الدين الجاهلي، وفي هذه الحالة يكون منحول وموضوع .يقول " : أوليس عجيا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ! كلا ! كانت قريش متدينة قوية الايمان بدينها[1] ".

-الشعر الجاهلي ورد موحدا، في حين أن القبائل العربية متكوثرة اللهجات واللغات . وكما هو واضح، فإن هذه الوحدة تثير الشكوك أكثر مما تمهد للاطمئنان .وانتشار لغة واحدة في الشعر الجاهلي دليل على سيطرة لغة القرآن على بقية اللهجات الأخرى، مما يدل على أن الأغلبية من الشعر الجاهلي تم انتحاله وصياغته في مرحلة أفول الجاهلية[2] .وفي هذه المسألة يتفق عالم اللغويات ومؤرخها" إسرائيل ولفنستون " مدرس اللغات السامية في الجامعة المصرية، والذي أهدي كتابه حول تاريخ اللغات السامية إلى الدكتور طه حسين الذي بدوره كان يشغل منصب رئيس قسم اللغة العربية واللغات السامية بكلية الآداب بالجامعة المصرية.

نتيجة تأويلية:

ها قد قدمنا باحتضار موقف الدكتور طه حسين من الشعر الجاهلي، مقرونا مع النتائج التي توصل إليها المستشرق مارجيليوث .فماذا نلاحظ ؟ ما الناتج من كل هذا ؟ كيف نتجاوز التأويلات التي تعبر عن رد فعل الضعف ؟ ونقصد طبعا التأويل

[1]- طه حسين : في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص31

.

[2]- إسرائيل ولفنسون :تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، مصر ، الطبعة الاولى، 1929 ، ص196 وأيضا طه حسين، في الشعر الجاهلي، . وكارل بروكلمان :فقه اللغات السامية، مرجع سابق، ص45

المعهود في اعتبار الدكتور طه حسين من أذيال الاستشراق الحاقد على الإسلام والعرب، من أمثالأحمد سمايلوفيتش، ويحي وهيب الجبوري، وأخرون كثر لا يسع المكان لذكر أسمائهم.

أولا نحن نوافق كل من يقول بأن هناك تشابه بين نتائج الاستشراق في دراسة الشعر الجاهلي، والنتائجالتي توصل إليها الدكتور طه حسين في كتابه ث في الشعر الجاهلي "و "في الأدب الجاهلي ."لكن هذا التشابه لا يجب أن يؤول على أن الاستشراق يهدف إلى الإساءة للقرآن وتشويه اللغة العربية، لأن معظم علماء الشرق قد تسلحوا بالروح العلمي وتقيدوا بأسس البحث المنهجي .والدكتور طه حسين بوصفه ناقدا أدبيا عمل على دراسة التراث العربي الإسلامي بذهنية منطقة وعقلية لا يشوالتقليد والتكرار غير المعقول .وتوافق نتائج طه حسين مع رجالات الاستشراق، يدل فيما يدل على " وحدة الموقف العلمي ."لأن من بين unanimité[1]. مميزات العلم هو التأسيس لتراكمات وبلوغ نتائج اجماعية لكن وكما هو ملاحظ، فإن أصحاب التوجه التتريثي والتقليدي يرفض اعتبار الشعر الجاهلي موضوعا لدراسة علمية .بل على العكس يعليه فوق التاريخ والنقد والاستبحاث، يقول أحدهم " :ليس الشعر الجاهلي فنا من الفنون الادبية وحسب، بل هو زاد العربية ومادا، عليه قامت علوم اللغة وبه فسر القرآن الكريم، وبفضله قوم اللسان العربي، وبذلك فالحفاظ على هذا الشعر هو حفاظ على اللغة العربية وعلى كتاب الله الذي حفظ اللغة العربية وحددها وجعلها باقية راسخة موحدة، وهي أقدم لغات العالم التي وصلت كاملة متماسكة يجتمع عليها أهلها رغم تفرق أهوائهم وأمصارهم[2]".والأدلجة بما هي فعل مضاد للعلمية مسألة Anti-واضحة للعيان في هذا القول، لأن التركيز كان علىscientifique مقولات عرقية وسياسية وتوحيدية، بدل توظيف مقولات العلمية والتاريخية والموضوعية.

[1] - 1Karl Jaspers : Introduction à la philosophie, traduit par Jeanne HERSCH,Librairie PLON, Paris, P 6.

[2] - - -6. يحي وهيب الجبوري : المستشرقون والشعر الجاهلي بين الشك والتوثيق، مرجع سابق، ص4-6

سنقول أيضا بأن معارضة النتائج العلمية المنجرة عن الدراسة الجادة المعقولة للتراث، هو ضرب من إرادة القوة السقيمة المريضة .وتبرير ذلك أن الإنسان مجبول على الاستقواء أو ما يسميه الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه1844)

Friedrich Nietzsche(1900إرادة القوة.la volonté de puissance

فإرادة القوة هو الفعل النهائي للكل، وما فكرنا وعلمنا إلا وسيلة لبلوغ الاستقواء[1] .وما يفهم من القوة أوسع بكثير مما يعتقد، لا تدل فقط على الاستعمار المادي العسكري، بل أيضا على فرض الهيمنة العلمية .واذا المدلول فإن الاستشراق هو فائض قوة علمية صدر من طرف الأمم الأوروبية المتقدمة.

والرد المتعصب من طرف أبناء الحضارة الشرقية) أي المستغربين (لا يمثل إلا إرادة القوة وهي في حالة مرض وضعف ووهن .والمراهنة دوما على التروع الاعتقادي ولإيماني لدى الإنسان، مثلما يعمل أصحاب الفكر التقليدي، لا يؤدي إلى النتائج المرجوة إلا بصورة مؤقتة .لأنه إذا كان الإنسان يتقبل الأمور اعتقاديا دون استجلاء، فإن تراكم هذه الإقبالات يؤدي في النهائية إلى الإيمان دفعة واحدة، وهنا تبرز العدمية بما هي عدم ايمان مطلق بالقيم التقليدية.فحقيقة الإنسان أنه حيوان شأنه أن يجل ويبجل العالم، ولكنه غاب عنه أنه إلى جانب

هذه الحيوان المقدس والمبجِل، فإنه شأنه أن يرتاب ويشك، أن بنظر إلى العالم بعين الريبة[2] .

لا يجب أن تفهم هذه الملاحظة على دعوة للركون إلى نتائج المستشرقين رغم أن الواقع العلمي يثبت أننا في هذه الوضعية إن إراديا أو قسريا - ، بل تدل على ضرورة الركون إلى نتائج العلم .وجعل الإنسان العربي – الإسلامي وتاريخه ولغته ومعتقده،

[1] -Friedrich Nietzsche : La volonté de puissance, Tome I, traduit par GenevièveBianquis, éditions Gallimard, 1995, paragraphe19, p 224.

[2]- فريدريك نيتشه :جينيالوجيا الأخلاق، ترجمة محمد الناجي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2006 ، فقرة -68. 12، ص66-68

موضوعات لدراسة علمية نقوم ا نحن، بدل أن نكلف غيرنا هذه المهمة الكبيرة .إننا ندعو إلى ضرورة علمنة) بمعنى تناول المسائل علميا (بدل أدلجة) تناول المسائل إيديولوجيا (التاريخ الإسلامي في كل جوانبه، وجعل موضوع اللغة العربية شأنا علميا خالصا، لأن علم اللغة مثلما استنتج ذلك دي سوسير في آخر جملة من كتابه المهم ": إن الهدف الحقيقي والوحيد للألسنية هو . La linguistique a pourأن اللغة يجب تدرس في حد ذا ومن أجل ذا unique et véritable objet la langue envisagée en elle-même et

ونحن نفهم جيدا ما مدلول هذه العبارة التي تجعل[1].pour elle-même" الدراسات اللغوية مستقلة عن بقية الاعتبارات.

سنختتم هذه المقالة بشهادة أهم من دعا إلى الدراسة العلمية للتاريخ والتراث الإسلامي دون أي وجل أو خوف، ونقصد طبعا الأستاذ محمد أركون) توفي (2010 الذي عمد إلى تقريض مساهمات طه حسين نظرا لأصالتها البحثية اولا، ونظرا أيضا لأ فتحت طريق التحديث الفكري العربي، لكنه تأسف لكونه وحيدا في هذه المعركة الشرسة ضد الأدلجة والتبسيط والاختزال الذي أصبح من عادات الإنسان والمثقف العربي الحديث .فقد كاد أن يخرجنا طه حسين من قمقم الذاتية والأسطرة بما هي آلية توهيمية تسكن العرب " قصرا إيديولوجيا فخما[2] ويضعنا على سكة العلمية والوعي التاريخي، لكن مواجهة العامة ورجال القانون، وعدم وجود أنصار أقوياء أمامه، حل دون ذلك.

وكلام الختام، هو أن الأدب العربي الحديث في دراساته النقدية لم ينفصل يوما عن الدراسات الاستشراقية، ولا يمكن أن ينفصل .وبدل الأحكام التقديحية والتنفيرية،

[1] - Ferdinand De Saussure : cours de linguistique général, Op.cit, p376.

[2]- محمد أركون:الفكر الإسلامي -نقد واجتهاد، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1998 . ، السؤال 17 ، ص146

يجب الإقدام بكل روح علمية والانتفاع من نتائج الدراسات التي انجزها علماء غربيين أفذاذ في مناهجهم وقدرا?م .لأن" عقد شراكة " بين الاستغراب والاستشراق له خطوة أولية لسير علمي ناجح.

جامعة وهران
Université d'Oran